دلالات الأسلوب القرآني من خلال الفعلين الماضي والمضارع

"دراسة دلالية بيانية "

Semantics of Quranic style
Through past and present verbs
"Graphic semantic study"

حسن محمد أحمد محمد [1]

[1]جامعة أم درمان الإسلامية – السودان، البريد الالكتروني: tleap2@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/05/18 تاريخ القبول: 2020/06/03 تاريخ النشر: 2020/06/17

الملخص:

عمل الباحث، من خلال تتبعه للفعلين، الماضي والمضارع في بعض آي القرآن العظيم على تناول الحركة الإنتقالية للأحداث والمشاهد، سواء أكانت سمعية أم بصرية، وتتابعها على مر الزمان الموغل في القدم وحاضر معاش، ومستقبل لا ندركه إلا من خلال آي القرآن العظيم وسوره. وبما أن الزمن هو نتاج لحركة المكان؛ فقد عمل الباحث على توضيح ذلك بشئ من التوسع في ثنايا بحثه، ليأتي، بعد هذا، الحديث عن واحد من أبرز محاور هذه الدراسة، هو، دلالات الأسلوب القرآني من خلال الفعلين الماضي والمضارع ، مع التركيز على الفعلين الماضي والمضارع لارتباطهما البيّن بحركة الزمن, وقد منح الباحث مساحة، موجزة، من هذه الدراسة للحديث الزمن والقسم به في آيات القرآن العظيم، ، أما خاتمة البحث فقد اشتملت على ما توصلت إليه الدراسة من نتائج.

تم تقسيم البحث إلى مباحث ثلاثة: الأول، القرآن العظيم. الثاني: اللغة العربية. الثالث: براعة القرآن وبلاغته في استخدام الأفعال، والمبحث الأخير هو محور الدراسة الأساسي ومركزها الرئيس.

Abstract:

المؤلف المرسل: حسن محمد أحمد محمد

Through his tracing of the two deeds, the researcher worked in the past and the present in some of the Holy Qur'an to deal with the transitional movement of events and scenes, whether audio or visual, and follow them with the passage of time the present pension and a future that we can achieve only through the Great Quran and its surah. Since time is the product of space movement, the researcher worked to clarify this with some expansion in the folds of his research, to come after that, to talk about one of the most prominent axes of this study, which is the indicators of the Qur'anic approach through the past and the present, with a focus on the past and present times because of their association What is clear about the movement of time? Did the researcher give a brief and brief space from this study of the hadith of time and syllable in it in the verses of the Holy Qur'an, while the conclusion of the research included the results of the study?

The research was divided into three axes: The first is the Holy Qur'an. Second: Arabic. Third: The diversity and wording of the Qur'an in the use of verbs. The final topic is the main focus and main focus of the study.

المقدمة

تمثل الأفعال في جميع اللغات محورًا أساسيًا تدور في فلكه التعابير والحاجات النفسية والاجتماعية والاقتصادية ..، وغيرها من متطلبات التعاملات الإنسانية، إذ يرى ابن جني أن اللغة هي: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[1]" وفي االلغة العربية نجد أن النحويين قد قسموا الكلام، جميعه، إلى أقسام ثلاثة هي: الحرف، الاسم، والفعل، يقول ابن مالك[2]:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم * واسم وفعل ثم حرف الكلم

واحدة كلمة والقول عم * والكلمة بها كلام قد يؤم

والفعل، بدوره، قسموه أقسامًا ثلاثة: الماضي، المضارع، والأمر. ولكل من الحرف والاسم والفعل، سماته وصفاته المتعلقة به، ولسنا هنا في مجال استعراضها أو الحديث عنها، وإنما أشرنا إليها بشكل مقتضب ومختصر؛ لنبين ارتباط الفعل بعامل الزمن. ونسبة لارتباط الفعل بحركة الزمن تعرض الباحث،

بشكل موجز ومختصر، لحركة الزمن كظاهرة كونية تضبط حركة الوجود بكامله بدقة غير متناهية يجب أن نقف عندها ونتأملها بعقل واع وقلب مفتوح، وقد احتفى القرآن العظيم، بالعديد من الأحداث التاريخية، مما يدلل على عظمة هذه الظاهرة:

ومن احتفاء القرآن بالزمن أن ربط بينه وبين العبادات الرئيسة وأوقاتها في الإسلام، كالصلاة، والزكاة والصوم، والحج.

إن الزمن ظاهرة كونية تحتاج، من الباحثين، إلى الكثير من الأبحاث والدراسات، بشكل عام، وبشكل خاص البحث في آيات القرآن العظيم. وعلى الإنسان أن يولي الزمن الكثير من الاهتمام، وأن يتجلى ذلك الانضباط في السلوك والمظهر الاجتماعي للمجتمع بكامله، ولابد من ادارة الوقت بدقة متناهية، حتى تعي الأمة المسلمة القرآن بفكر عقلاني، وتؤدي دورها المنوط بها في هذا الوجود. وربما وجدت العديد من الدراسات النحوية حول الأفعال وعملها في اللغة وكذلك دراسات عن الزمن بشكله الفيزيائي أو غير ذلك، ولم تتوفر لي، حسب علمي، تتناول الأفعال في اطار حركتها المكانية والزمنية.

. مشكلة البحث:

تتجلى البلاغة القرآنية في استخدامها للأفعال، حيث يتنقل القارئ والتالي لآي القرآن العظيم من ماض سحيق، منذ نشأة الخلق، إلى حاضر يعيشه الإنسان، ثم ينتقل المشهد إلى الحديث عن مستقبل يكتنفه الكثير من الغموض إلا من ب[3]عض الشذرات. ويرى[4]د الباحث، هنا، أن يستعرض جماليات الاستخدام القرآني للأفعال من حيث الحركة والإنتقال في المكان والزمان، والتي يستبين جمال الأسلوب القرآني من خلالها. وسيتركز البحث حول أسلوب استخدم القرآن العظيم للأفعال، لاسيما الفعل الماضي والفعل المضارع، كوسيلة تصويرية تترجم المشاعر والأحاسيس النفسية والحسية؛ لدى كلا الطرفين: المؤمنين وغير المؤمنين، سواء أكان المشهد في الدنيا أو من مشاهد يوم الجزاء والحساب. وقد يكون من المهم جدًا أن نشير إلى أن هذه الدراسة لا تقوم على تفسير الآيات القرآنية بقدر ما تهتم بالحديث عن الحدث أو المشهد الذي يصور لنا حركة التاريخ وهو يستعرض المشاهد والأحداث الكونية.

. أهمية البحث:

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من أهمية البحوث والدراسات، بشكل عام، وتكتسب أهميتها، أيضًا، من أهمية ميدان البحث وموضوع الدراسة، وهو القرآن العظيم، الذي يتميز بالعظمة والمكانة التي يتبوءها في نفوس المسلمين المؤمنين بقدرة الله .. وسمو مكانته في قلوبهم، كذلك تتأتى أهمية، هذه الدراسة، من أهمية استخدام الأفعال في اللغة العربية وما لها من دلالات ومعاني نفسية اجتماعية وفكرية ..، وغير ذلك مما لا حاجة للاحاطة به في هذه الدراسة المختصرة.

. أهداف البحث:

اظهار بلاغة الأسلوب القرآني في تصوير المشاهد الحسية والمعنوية.

بلاغة القرآن العظيم في استخدام الماضي والمضارع لتخطي الحواجز المكانية والزمانية.

دقة التعبير القرآني في استحضار المشاهد السمعية والبصرية.

. المنهجية:

تسير هذه الدراسة وفق منهج البحث اللغوي الذي ينبني على الجمع الاستقصائي للمادة، والمناقشة والتحليل، ومن ثم الاستنباط والاستنتاج. ومادة هذه الدراسة تتمثل في الفعلين، الماضي والمضارع، بحسب ورودها في بعض آي القرآن العظيم.

المبحث الأول

القرآن العظيم

القرآن هو خير ما صرفت فيه الجهود واشتغل به العلماء، تعليمًا وتفسيرًا، ...كتاب الله[5]، وهو الذي لا تشوبه شائبة ولا تعيبه عائبة:

والقرآن، كما يعرفه الفقهاء، هو: "كلام الله المنزل على محمد، صلى الله عليه وسلم، المتعبد بتلاوته"[6]، وفي تعريف آخر، القُرآنُ هو كلام الله، المنزَّل على محمد، صلوات الله وسلامه عليه، بلسان عربي مبين بوساطة جبريل، عليه السلام. المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر كتابة ومشافهة، المتعبد بتلاوته، ...، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس[7]:

وإنه لمن سوء الأدب من أولئك الذين يضاهون بين القرآن العظيم، وهو كلام الخالق، جلّ وعلا، وبين غيره من كلام لا يعدو إلا أن يكون هرطقة موسوس، ولا أحسب أن هناك لسانًا ولا قلمًا يقوى على وصف ما فيه من جلال وكمال وجمال؛ ولذلك لا نملك إلا أن نصفه بأنه كلام الله وكفى:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحجر:9.

يقول سيد قطب: إن الحياة في ظلال القرآن نعمة، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه، والحمد لله .. لقد منَّ عليّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان ذقت فيها من النعم ما لم أذقه قط في حياتي[8]...، تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن، ...، لقد أنشأ القرآن للبشرية تصورًا جديدًا عن الوجود والحياة والقيم والنظم[9].

ولم يدع الله تعالى للبشرية أي قدر من التصرف في آي القرآن العظيم وسوره على الإطلاق، كما أنه أرفع شأنًا وأعلى قدرًا من أن تصفه ألسن البشرية، مهما حازت من البلاغة.

يقول العقاد، عن القرآن: بقي القرآن الكريم، في العالم الإسلامي، نحو ألف وأربعمئة سنة، قوة عاملة يعتصم بها في اقباله وادباره، وفي عزته وانكساره بل كان هو القوة العاملة التي نفعته حين فارقته جميع القوى التي تنفع الأمم، فكان له قوة تعينه على التقدم والنماء، كما كان له قوة تعينه على الثبات والمقاومة[10].

إن الحديث عن الحركة الكونية يدعو إلى التأمل والتفكر، لاسيما إن كان الحديث عن بلاغة القرآن العظيم وبراعته في ضبط حركة الزمن:

إن حركة الزمن في هذا الوجود، ظاهرة تثير في النفس الإعجاب والدهشة، إن نحن وقفنا عندها وتدبرناها بشئ من التمعن والاهتمام، من ذلك، مثلاً، إن التالي لآي القرآن العظيم، والمتتبع للخريطة الزمنية فيه؛ لا يجد فيه تاريخًا على الاطلاق، ولكنه، يشهد فيه دقة تفوق دقة الأتو/ثانية (Tou second)[11]، في دقتها الزمنية، في مجال السرد للوقائع والأحداث التاريخية التي شهدها الوجود الكوني والإنساني.

الأسلوب القرآني:

لقد تميز القرآن العظيم بأسلوب بلاغي متفرد، إنه الحديث الذي لا يدرك أصوله وحقيقته إلا مبدعه وصانعه، فكذلك يكون القرآن العظيم متفردًا من حيث الأسلوب الخطابي والبلاغي، ومتميزًا في كل سماته وصفاته .

والأسلوب هو المنهج أو الطريقة المنهجية التي يتبعها صاحب الحاجة من أجل بلوغ حاجته والوصول إلى مبتغاه، ويكاد أهل اللغة، في معاجمهم، يتفقون حول مفهوم الأسلوب وتعريفه، ونحن هنا نعرض لبعض مما أورده علماء اللغة في معاجمهم:

ابن دريد: والأسلوب: الطريق، والجمع أساليب. ويقال: أخذ فلان فى أساليبَ من القول، أي فنونٍ منه[12].

الرازي: والأسلوبُ بالضم: الفَنُّ؛ يقال أخذ فلانٌ في أساليبَ من القول، أي في فنونٍ منه[13].

ابن منظور: والأسلوب: الطريق، والجمع أساليب. ويقال: أخذ فلان فى أساليبَ من القول، أي فنونٍ منه. والأُسْلُوبُ: الطريقُ تأْخذ فيه. والأُسْلوبُ، بالضم: الفَنُّ؛ يقال: أَخَذ فلانٌ في أَساليبَ من القول أَي أَفانِينَ منه[14].

. القَسَمُ بالزمن:

يقول الشاعر الفاطمي[15]:

فقلتُ يمينَ الله أبرحُ قاعِداً * ولو قطعوا رَأْسِي لَدَيْكِ وأوْصالي

والقسم في آي القرآن باب وسع ومن أبرزها القسم للتعظيم، ولكن يبدو أن بنت الشاطئ، في بعض الأحيان، لا توافق والرأي السائد عن الأقدمين، أن هذا القسم القرآني يحمل معنى التعظيم للمقسم به، حيث تقول: والذي اطمأننت له، بعد طول تدبر وتأمل في السور المستهلة بهذه الواو، هو أنالقسم يمكن أن يكون والله أعلم، قد خرج عن أصل الوضع اللغوي في القسم للعظيم إلى معنى بياني[16].

ولعل الله، تعالى، لم يستثن من اليوم جزءًا إلا وأقسم به:

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) الفجر:1-4.

(وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ) المدثر:34.

(وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) الضحى: 1-2.

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) الشمس: 1-4.

(وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) الليل:2.

(وَالْعَصْرِ) العصر:1.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى) الليل: 1.

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) التكوير: 17-18.

المبحث الثاني

اللغة العربية

ظلت العربية تنتشر وتزدهر، منذ نشأتها وإلى الآن، بجهود محبيها وعاشقيها، ولم تجد إلا القليل من الدعم، بينما وجدت رصيفاتها من اللغات الأخرى، كالإنجليزية والفرنسية، مثلاً، الكثير من العناية والرعاية من ذويها والدعم المادي من السلطات، ولكن يكفي العرب فخراً لا يدانيه فخر في مجال الإنتاج العقلي أنهم استطاعوا أن يبدعوا إبداعاً عظيماً يتمثل في عظمة اللغة العربية وفي ذلك يقول العقاد: إن جهاز النطق الإنساني عبارة عن أداة موسيقية وافية، لم تحسن استخدامها على أوفاها أمة من الأمم القديمة والحديثة كما استخدمتها الأمة العربية؛ لأنها انتفعت بجميع المخارج الصوتية في تقسيم الحروف[17].

ووصف المستشرق آرنست رينان، صاحب كتاب (التاريخ العام للغة السامية)، اللغة العربية فقال: من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى وعند أمة من الرحل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، و لقد كانت تلك اللغة مجهولة بين الأمم ولكنها من يوم أن عرفت ظهرت لنا في حلل الكمال. إلى درجة أنها لم تتغير أي تغيير يذكر، حتى أنها لم تعرف لها في طور من أطوار حياتها، لا طفولة و لا شيخوخة ولا نكاد أن نعرف من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى، و لا نعلم شبهاً لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة[18].

ولاشك في أن اللغة العربية لها خصائصها التي تمتاز بها عن سواها من اللغات؛ الأمر الذي حباها بقدر عال من الأهمية من حيث التواصل والاستخدام، على الرغم مما تتسم به من قدم، ضارب في أعماق التاريخ، يقول حسن ظاظا: هذه اللغة التي أنزل بها القرآن؛ كانت أحدث لغات الساميين عهدًا بالكتابة، وهي مع ذلك أقدم اللغات ميلادًا، وأرسخها قدمًا في خصائص العائلة اللغوية كلها[19]. ولم تزل العربية تتمتع بنضارة الشباب وعنفوانه وفتوته، وهذا ما جعل منها وعاءً استطاع المسلمون، بواسطته، أن يقدموا الحضارة الإسلامية لكل شعوب العالم الإسلامي؛ وبذلك استوعبت الحضارة الإسلامية جميع ثقافات تلكم الشعوب والأعراق المتعددة والمتنوعة؛ فكانت تلك الثقافات بمثابة الروافد لنهر اللغة العربية المتدفق والمنساب إلى يومنا وإلى ما بعده. ولا يمكننا أن ننسى أن اللغة العربية قد شكلت الوعاء الذي حفظ الكثير من تراث الإنسانية وقدم الحضارة الإسلامية لكل العالم، كذلك لا يمكننا أن نتجاهل أنها قد تمكنت من أن تحمل على كاهلها أعباء حضارة ضخمة كالحضارة الإسلامية العربية التي توسعت حتى شملت ثلاث قارات في وقت واحد. وقد أنزل الله تعالى كتابه العظيم على نبيه الكريم، عليه أفضل صلاة وأتم تسليم، بلسان عربي في أمة عربية.

اللغة جنس عام يحدد المراد منه بالوصف أو الإضافة، وبالرغمن من انتشار وذيوع لفظ اللغة، إلا أنه لم يتم استخدامه في آي القرآن العظيم، وقد استخدم القرآن العظيم، بدلاً منه، لفظ لسان وألسن، بمعنى اللغة أو اللغات المتداولة والمنتشرة بين مختلف الأعراق والأجناس البشرية[20].

والذي يسترعى الانتباه، هنا، هو أن العربية لم تكن، في ذلك الوقت، لغة معروفة أو منتشرة، وإنما كانت لغة محلية محصورة في فئة قليلة من الناس، هم سكان شبه الجزيرة العربية، إلا أنها، وبفضل القرآن العظيم قد تسيدت اللغات وحملت لواء الحضارة الإنسانية، يقول العقاد: وابتلى المسلمون، أيام ضعفهم، بالطامعين فيهم، وعداوة القادرين عليهم، فلا تعرف دولة من الدول الطاغية المتغلبة لم تفتح بلدًا من بلدان المسلمين، أو تدخله بالحيلة والمكيدة، ولا تعرف لهذه البلاد المغلوبة قوة تعوذ بها، وتأبى عليها أن تسلم بالهزيمة، وتنهض في جوف الدول المحيطة بها، غير إيمانها بهذا الكتاب: إن الإيمان بالقرآن وقبول الخضوع لغير رب العالمين نقيضان لا يجتمعان في إنسان[21].

وقد وجدت العربية من الإنتشار والذيوع ما مكنها من امتلاك القلوب والتغلغل في النفوس، يقول الثعالبي: من أحب الله أحب رسوله صلى الله عليه وسلم. ومن أحب النبي العربي أحب العرب. ومن أحب العرب أحب لغتهم التي نزل بها القرآن الكريم, أفضل الكتب على أفضل العرب والعجم! ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها! ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً خير الرسل!، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة،؛ إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدين، وسبب صلاح المعاش والمعاد !.اهـ[22]. ولعل، مثل هذا الضرب من القول وأمثاله، هو ما جعل العربية تتميز عن سواها من اللغات، حيث شغل العلماء بحب للعربية ملأ جوانحهم وملك عليهم شغاف قلوبهم، وقد نبعت تلك المحبة من تعلقهم بآي القرآن العظيم؛ ذلك الكتاب الذي جاء بلسان عربي هو لسان القبائل العربية.

. الأفعال في العربية:

تمثل الأفعال في اللغة، قوة الحركة والنشاط التفاعلي، فالأفعال، في اللغة العربية، تعطي الجملة تميزها الدلالي واللفظي والنحوي والصرفي والبلاغي ..، حيث تشير صيغة المبالغ إلى وجود قوة هائلة تفوق التصور البشري والإدراك العقلي، ولا تحدها حدود زمانية كانت أو مكانية. وإذا نظرنا في القرآن العظيم وجدناه يفرق بين دلالة الصورة الفعلية فيخصها بمقام لا تتعداه إلى غيره، ودلالة الصورة الإسمية فيخصها بمقام آخر مغاير تمامًا لمقام الصورة الفعلية[23].

وترتبط الأفعال، لاسيما الماضي والمضارع، بالزمن وحركته، أي الزمن الذي وقع أو يقع فيه الحدث، كالفعل الماضي، أو ربما يدل الزمن على وقوع الحدث في المستقبل، سواء أكان المستقبل القريب أو البعيد، وكذلك يمكن أن يشير الزمن إلى استمراية وقوع الحدث وتتابعه، كما في المضارع، ولعل هذا هو حدا بالنحويين، عند تعريفهم للفعل، إلى أن يعملوا على تقسيمه، بحسب زمن حدوثه، إلى ماض ومضارع، للدلالة على معنى مضى ومعنى حالي مستمر أو مستقبلي.

وننونه، هنا، إلى أننا قد استبعدنا الفعل الثالث وهو فعل الأمر من بين الأفعال الثلاثة، لعدم وقوعه ضمن دائرة حديثنا البحثي هذا.

الفعل، هو لفظ وضع ليدل على معنى مستقل بالفهم، والزمن جزء منه ...، الماضي ما دل على حدوث شئ قبل زمن المتكلم ...، والمضارع، ما دل على حدوث شئ في زمن المتكلم أو بعده[24]. كذلك يعرف النحويون الفعل، بأنه ما يدل على حدث مقترن بزمن، وهو ركن من أركان الجملة الفعلية (المبدوءة بالفعل)[25]. وعند ابن مالك: الكلم اسم جنس، واحده كلمة وهي: إما اسم، وإما فعل، وإما حرف، لأنها إن دلت على معنى في نفسها غير مقترنة بزمان . فهي اسم. وإن اقترنت بزمان فهي فعل[26]. ويعرف الجزولي الأفعال، فيقول: الأفعال بالنسبة إلى الزمن ثلاثة أقسام: ماض بالوضع كفعل، ومستَقْبَل بالوضع كإفعلْ، ومبهم بالوضع كيفعلُ[27].

ويعرف صاحب كتاب مختار الصحاح الزمن فيقول: الزَمَنُ والزَمانُ: اسمٌ لقليل الوقت وكثيره، ويجمع على أَزمانٍ وأَزْمِنَةٍ وأَزْمُنٍ. ولقيته ذاتَ الزُمَيْنِ، تريد بذلك تراخيَ الوقت، كما يقال: لقيته ذات العُوَيْمِ، أي بين الأعوام. الكسائي: عاملته مُزامَنَةً من الزَمَنِ، كما يقال مشاهرةً من الشهر. والزَمانَةُ: آفة في الحيوانات. ورجلٌ زَمِنٌ، أي مُبْتَلىً بيِّن الزَمانَةِ[28].

اللفظ والمعنى:

إن ثمة علاقة تصويرية تجمع بين اللفظ والمعنى، فكلما شرف المعنى استلزم، للدلالة على ذلك، شرف اللفظ، وغير أننا نلاحظ أن الجرجاني يرى أن فضيلة الكلام للفظ لا للمعنى، فيقول: "علمت أن الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقهما أصاف راجعة إلى المعنى وإلى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ نفسها[29]، أما الجاحظ فكان يرى أن المعاني مبذولة في الطرقات يعرفها العجمي والعربي القروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك[30]. مما يدلل على أن لا قيمة لمعنى من دون لفظ يشرفها، أي أن الشرف للألفاظ، فهي التي تعطي المعاني مكانتها وقيمتها البلاغية في نفس الإنسان وعقله، فكل عبارة أو جملة، تحمل في طياتها دلالاتها: الصوتية، والصرفية، والنحوية، بالإضافة إلى الدلالة المعجمية أو الاجتماعية[31]. تقول بنت الشاطئ: ... شغلنا بمثل هذا عن "القرآن الكريم"، الذي لا جدال في أنه كتاب العربية الأكبر ومعجزتها البيانية الخالدة ومثلها العالي الذي يجب أن يتصل به كل عربي أراد أن يكسب ذوقها ويدرك حسها ومزاجها، ويستشف

أسرارها في البيان وخصائصها في التعبير والأداء[32]...، وليست لدينا من شك في أن القرآن هو مناط الوحدة الذوقية والوجدانية لمختلف الشعوب التي اتخذت العربية لسانًا لها.

ويمثل علم البيان أحد علوم البلاغة، والبيان في اللغة هو، الكشف والظهور، وفي اصطلاح البلاغيين: ما يُعْرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة على المعنى المراد، والبيان بهذا المعنى يعد أحد أقسام البلاغة الثلاثة: البيان والمعاني، والبديع. والمباحث التي يتكون منهاعلْمُ البيان هي: التشبيه. الحقيقة والمجاز. المجاز المرسل. الاستعارة. الكِناية[33]. وبلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحة، ولا يتأتى ذلك إلا لذوي العقول النيرة والقلوب المتفكرة والمتدبرة في جميع الأوقات والأحوال:

لَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ آل عمران: ١٩١.

أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًاالنساء: ٨٢.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ يونس: 37.

الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ، الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ الرحمن: ١ — ٥.

وقد جاء في التفسير الميسر لقوله تعالى: ﭻ ﭼ ﭽ ﭾﭿ الشمس والقمر يجريان متعاقبَين بحساب متقن, لا يختلف ولا يضطرب[34]. أما القرطبي فيقول في تفسير (الرحمن: 5): ﭻ ﭼ ﭽ ﭾﭿ أي يجريان بحساب معلوم فأضمر الخبر. قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك: أي يجريان بحساب في منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها. وقال ابن زيد وابن، كيسان: يعني أن بهما تحسب الأوقات والآجال الأعمار، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب شيئا لو كان الدهر كله أو نهاره[35].

. دلالات الأفاظ:

تحمل الألفاظ العديد من المعاني الدلالية، والتي يمكن أن نستنبطها من بين تراكيب الجمل لتحديد دلالة الأفاظ لمعانيها، ولا اعتداد بمعاني الكلمات المفردة إن لم تنتظم في سياق تركيبي ... ودلالة

اللفظة التي تكتسبها خلال نظمها في سياق تركيبي هي التي يسعى إليها مستخدم اللغة[36]، ونجتزئ، هنا، بعضًا من تعريفات علماء اللغة لعلم الدلالة فهو، مثلاً، "العلم المختص بدراسة المعنى"، أو هو: "العلم الذي يدرس نظرية المعنى باعتبارها فرعًا من فروع اللغة". وأضاف آخرون الإشارات الرمزية والإيماءات الجسدية فعرفوه بأنه: "هو العلم الذي يدرس الشروط الواجب توفرها في الرمز حتى يكون قادرًا على تحمل المعنى"[37]. ويقدم لنا الشريف الجرجاني تعريفًا في منتهى البلاغة: "كون الشئ بحالة يلزم من العلم به العلم بشئ آخر"[38]، والتعريف الأخير يحمل في طياته بذور المعرفة الموسوعية التي ينادي بها الفلاسفة، حيث لابد من تأسيس قاعدة معرفية يمكن للفرد البناء عليها، ومن ثم العمل على طرح الأسئلة والاستفسارات والمقارنة بينها، والقدرة على التحليل المنطقي والعقلي والربط بين القرائن، من أجل الاستنباط واستنتاج الحقائق.

. مفهوم الزمن:

لقد لعبت السماء، منذ وقت مبكر، دورًا كبيرًا في تشكيل حياة الإنسان ومفاهيمه الدينية والفكرية والفلسفية والمعيشية..؛ ويقول القرطبي في تفسيره (وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها)[39]؛ ولذلك نجد أن ناظري الإنسان قد توجهت نحو السماء للبحث عن خالق هذا الوجود:

كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ الأنعام: ٧٥ – ٧٨.

إن تقسيم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة، والساعة إلى ستين دقيقة، والدقيقة إلى ستين ثانية قد أتى من قبل البابليين القدماء، إذ قسم البابليون المسار الدائري الظاهري للشمس إلى اثني عشر قسماً متساوياً، ومن ثم قسموا فترات ضوء النهار والظلام إلى اثني عشر قسماً لكل منهما، بحيث ينتج عن ذلك أربع وعشرون ساعة. ومن خلال مراقبة الإنسان لحركة الأجرام السماوية، الشمس والقمر والنجوم، ظهر مفهوم الوحدة

الزمنية والتي انبنت على تعاقب الليل والنهار، وبذلك يكون اليوم الشمسي الذي يعرف بالدورة اليومية الظاهرية للشمس أبسط وحدات هذا النظام وأكثرها وضوحًا، وترتب على تلك المراقبة اكتشاف تعاقب فصول السنة الشمسية، دون أن تكون للقدماء أدنى فكرة عن أن السبب وراء تعاقب الليل والنهار والفصول هو دوران الأَرض حول نفسها وحول الشمس، في نفس الآن. إلا أنه كان سهلاً عليهم أن يروا تغير موقع القمر وتغير أشكاله، ونتيجة لذلك، كان من الممكن اعتبار الفترة بين بدرين متتاليين شهرًا قمريًا في معظم التقاويم القديمة، واستخدامه وحدة زمنية وسطى بين السنة الشمسية واليوم الشمسي[40].

التقويم الجريجوري. يستعمل معظم الناس التقويم الجريجوري الذي وضعه البابا جريجوري الثالث عشر في ثمانينيات القرن السادس عشر. يتكوَّن التقويم من 12 شهرًا، منها 11 شهرًا تتراوح أيامها بين 30 و 31 يومًا. أماشهر فبراير ففيه 28 يومًا في العادة. ويُصبحُ 29 يومًا مرة واحدة كل أربع سنوات. وتدعى مثل هذه السنة السنة الكبيسة في مقابل السنة البسيطة التي يكون فيها شهر فبراير 28 يومًا. وعلى أي حال، فإن هذا التقويم ليس دقيقًا بما فيه الكفاية، ذلك أنه لابد من حذف اليوم الزائد في فبراير في الأرقام الدالة على القرون ولاتقبل القسمة على 400 بدون باق، مثل 1700 أو 1800 أو 1900. كما أنه لابد من الإبقاء عليه في تلك السنة في القرون التي تقبل القسمة على 400 مثل 1600 و2000[41].

إن شرح فكرة الزمن تعتبر عملية معقدة من حيث دقة التعريف وهي فكرة عصية على الفهم لدى العامة من الناس، غير أن العلماء، لاسيما الفيزيائيين، قد بذلوا الكثير من الجهد لمعرفة مفهوم الزمن، إذ يرى الفيزيائيون أن الزمن يمثل البعد الرابع للمكان، وليس في الزمان أي إنفصال فهو متصل بل هو اتصال دائم، من خلال أبعاده الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل[42]، وقد كان اسحاق نيوتن، يرى أن الزمن هو الشئ المطلق في هذا الوجود، وقسم نيوتن الزمان إلى قسمين: أولاً المطلق، وهو الزمان الحقيقي الرياضي القائم بذاته والمستقل بطبيعته في غير نسبة لأي شئ وهو يسيل باطراد ورتوب. أما الثاني فسماه الزمان النسبي، وهو مقياس حسي خارجي لأية مدة بواسطة الحركة، أي الزمان المستعمل في الحياة العادية في صورة وحدات زمنية كالساعة واليوم والشهر ..[43]، وقد تغير هذا المفهوم لدى البرت أنشتاين، الذي اعتبر الزمن أحد المكونات المنبثة في الوجود الكوني. وقد أدرك ألبرت أنشتاين تأثر قياس هذه الكميات بالحركة

النسبية، والتي من أبرز نتائجها أن الزمن ليست واحد في موضعين مختلفين أي أن الزمن نسبي، كما أن شكل المكان منحني وليست بمستقيم، وأن الضوء هو أسرع ما في الوجود؛ وبذلك تغير مفهوم الزمن ولم يعد كما عند نيوتن[44].

وللزمن عند الفلاسفة مفهوم آخر، إذ يعرف أرسطو الزمان بأنه عبارة عن "مقدار الحركة من جهة المتقدم والمتأخر[45]"، كما يرى أنّ الزمن بطيءٌ وسريع كما هو الحال في الحركة والتغيير، ولهذا فإنّ اللحظة الآنية التي تمثل الزمن الحاضر هي بمثابة حلقة الوصل بين ماض فات ومستقبل آت، في الزمن الذي يكون متصلاً، والزمن عند أرسطو حركة متصلة ومتتابعة، أما اللحظة الآنية فهي نقطة وهمية تفصل بين الماضي والمستقبل، كذلك اعتبر أرسطو، أن حركة الزمان دائرية، وبالتالي يمكن قياس سرعة الحركة، ولعل هذا هو ما جعل الفيلسوف ولهلم ليبنتز، يربط الزمن بالمكان، وهما عبارة عن مفهومين مرتبطين بالديمومة والامتداد الذهني[46]. ويقول بدوي: وعلى هذا النحو نستطيع تحديد طبيعة الزمان. "فهو مكون من آنات يرفع كل منها الآخر"[47].

بيد أن تلكم الألفاظ وما تحمله، في ثناياها، من معان عديدة، لابد وأن تكون منضبطة بسياق الآية، وأن لا يتم بترها وإخراجها من سياقاها ومقصدها المتضمن في الآية أو الآيات، لاسيما وأن دلالات الألفاظ الوارد ذكرها في القرآن العظيم، تأتي لتخدم موضوعًا وغرضًا بذاته، وليس المقصود بها وحدة استاتيكية ميتة أو منغلقة ومنكمشة على نفسها، وإنما هي ألفاظ حية تحمل بذور التأثير والتأثر، وقابلة للتطوير والتطور؛ ولعل القصد من وراء ذلك هو أن تساير، تلك الألفاظ، مفهوم العصر وأن تتوافق مع قدرات العقل البشري وإمكاناته في كل زمان ومكان، فلا تفقد معناها[48]، فمن ذلك، مثلاً، اللحظة الآنية، وهي تعني الدقة في استخدام الوقت أو اللحظة التي يقع فيه الحدث، كقوله تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آَمَنْتُمْ بِهِ آَلْآَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) يونس: 50-51.

تشير الأفعال (أَتَاكُمْ، وَقَعَ، آَمَنْتُمْ) إلى الماضي، بينما الحديث عن فعل سيقع كذلك يحمل اللفظ (آَلْآَنَ) معنى الاستفسار والسؤال، لماذا تستعجلون عذاب الله الذي أخره عنكم؟

إن قيام الساعة يأتي بشكل سريع كأنه وميض البرق أو كلمح البصر لحظة حدوثه:

(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ) النحل: 77.

(وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) القمر: 50.

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) الروم:55.

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ) الأحقاف: 35.

(قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ) سبأ:30.

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) الشورى: 17.

ونجد أن الزمان والمكان، كلاهما، قد تلاشيا حين طلب سليمان، عليه السلام، عرش بلقيس:

(قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ) النمل: 38-39.

المبحث الثالث

براعة القرآن وبلاغته

في استخدام الأفعال

إن الألفاظ هي بمثابة الوعاء الذي نقدم فيه عقولنا للآخرين، وتشكل اللغة، ككل متجانس، مظهرًا اجتماعيًا يخضع لضوابط القانون الاجتماعي من حيث الرقي والانحطاط[49] وتمثل الأفعال في العربية الضلع الثالث في المثلث المكون للغة: الاسم، الفعل، الحرف، وللفعل ارتباط وثيق بالزمن حسب وقوعه، فالفعل الذي وقع ومضى زمن حدوثه هو فعل ماضٍ، قال تعالى:

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) الشعراء:189.

في الآية فعلان ماضيان (فَكَذَّبُوهُ)، (فَأَخَذَهُمْ) يفصل بينهم حرف الفاء، الذي يفيد تتالي الفعل مع التراخي اليسير في زمن حدوث الفعل، وقد كان ذلك ردًا على استهزاء قوم شعيب الذين طلبوا العذاب،

قال ابن كثير: ...، فقالوا: (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)، فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم[50].

أما الفعل المضارع فيفيد حدوث الفعل في الزمن الحاضر مع الاستمرارية، وأيضًا، قد يفيد المستقبل، سواء أكان قريبًا أو بعيدًا، يقول تعالى:

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ) الطور:45.

إن فعل الأمر(فَذَرْهُمْ)، يعني دعهم وأتركهم الآن، ولكن ليست بالمطلق وإنما جاء الفعل المضارع (يُلَاقُوا) ليفيد التأجيل والتأخير ولكنه مرتبط بزمن محدد معلوم، وقوله تعالى في هذه الآية الكريم (فَذَرْهُمْ) يعني اتركهم وهذا الفعل لم يستعمل منه إلا الأمر والمضارع، فماضيه ترك ومصدره الترك واسم الفاعل منه تارك واسم المفعول منه متروك[51].

وكذلك في قوله تعالى:

(فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ) الشعراء: 202-203.

فإن الفعل المضارع (فَيَأْتِيَهُمْ) يفيد التأخير والتأجيل "ولفظة (هَلْ) هنا يراد بها التمني والآية تدل على أنهم تمنوا التأخير والإنظار أي الإمهال وقد دلت آيات أخر على طلبهم ذلك صريحا وأنهم لم يجابوا إلى ما طلبوا"[52]. في تلكم الساعة التي تمنوا فيها التأجيل يأتيهم الجواب من المؤمنين، ولكن هنا مقام الفعل الماضي (وَقَالَ)، في قوله تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) الروم:56.

بالرغم من أن الآية تتحدث عن المستقبل البعيد، إلا أن الفعل المستخدم هو فعل ماض (وَقَالَ) مؤكدًا تأكيدًا قاطعًا لا ريب فيه ولا شك، على أن العذاب قد وقع لا محالة، ولنتمعن في اسم الإشارة (هَذَا) والذي تضمن إشارة واضحة الدلالة، حيث يشير إلى الصورة الحسية لمشهد العذاب في يوم القيامة، وهو مشهد حسي مشاهد وملموس.

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32)وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (33)وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (34)ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ الجاثية: ٣٢ – ٣٥.

تأمل في هذه الآيات (الجاثية: 32-35) الحوار المتصل، والذي بدأ في الدنيا ولكنه لا ينتهي بل يستمر إلى يوم الحساب. حيث تم استخدام الفعل الماضي (وَبَدَا)، (وَحَاقَ) في حين أن مسار الحديث هو المستقبل، وهناك دلالة واضحة، تؤكد أن الساعة بكل مشاهدها قد حسم أمرها في علم الخالق، وهي تكرار لفظ اليوم في الآيات ثلاث مرات (الْيَوْمَ)، (يَوْمِكُمْ)، (فَالْيَوْمَ)، ولا تكتفي الآيات بذلك بل تضيف اسم الإشارة (هَذَا)، ونجد أن الآية (الجاثية 35) قد استخدمت المضارع؛ ولكن بعد اقترانه بأدوات النفي (ﭽ ﭿ)، (ﭽ ﭾ ﭿ)، كدليل تأكيدي للعذاب المؤكد.

ونجد في الآيات (الصافات: 20، 50، 55-56)، عددًا من الأفعال الماضية التي يدور الحديث فيها عن يوم البعث (وَقَالُوا)، (فَأَقْبَلَ)، (فَاطَّلَعَ)، (فَرَآهُ)، (قَالَ)، (كِدْتَ)، الذي يكذب به الكافرون، وهو واقع ملموس مشاهد في علم الخالق البارئ المصور.

(وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ) الصافات:20.

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) الصافات:50.

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ) الصافات: 55-56.

ويتصل الحديث عن مشاعر وأحاسيس أولئك المكذبين بيوم الدين، وهم حضور وشهود على أمر كانوا قد أنكروه تمامًا ولكنه الآن فعل مشهود واقع محسوس، ولات مناص من تصديقه، فالأفعال الماضية (فَأَقْبَلَ)، (قَالُوا)، (بَعَثْنَا)، (وَصَدَقَ)، المستخدمة في الآيات: (القلم: 30-31، يس:52)، تؤيد وتؤكد الحقيقة المطلقة التي غابت عن الأذهان، ولكنها الآن حقيقة ماثلة للعيان، فلم يعد هناك من بد ولا مهرب، من الشعور بالحسرة والخذلان المبين.

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ) القلم:30-31.

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) يس:52.

وتتجلى البلاغة في أسمى معانيها في قوله تعالى:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) النجم: 44.

وهي وإن كانت آية واحدة فقط، ولكنها اختصرت الزمن كله وجمعته في لحظة واحدة (أَمَاتَ)، (أَحْيَا) دون أن توجد لحظة فارقة بين وقت الموت في الدنيا ووقت البعث في الآخرة.

أما قصة سيدنا سليمان فتمثل نموذجًا للدقة والبراعة القرآنية، حيث تبدأ القصة بقوله تعالى:

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ) النمل: 20.

ثم تتوالى الأحداث وتتسارع:

(اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) النمل:28- 29.

إن الناظر إلى الفعلين لن يشعر بالزمن المستغرق في الرحلة ولا حتى في القراءة، ثم، بعد ذلك، عرض الخطاب على المجلس. لقد توقف الزمن وتجمد بين لحظة حدوث فعل الأمر (اذْهَبْ)، والفعل الماضي (قَالَتْ).

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ النمل: ٣٤ – ٤٠.

في هذه الآيات (النمل: 34-40)، هناك تتابع وتسارع في أحداث القصة وقد تجلى ذلك في الأفعال الواردة في الآيات، وهي: (جَاءَ)، (ارْجِعْ)، (قَالَتْ)، (دَخَلُوا) (أَفْسَدُوهَا)، (وَجَعَلُوا) وجميعها بصيغة الفعل

الماضي، ثم تأتي الأفعال المضارعة، (فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ)، (وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ) والتي تحمل في طياتها لهجة التهديد والوعيد، والتي ستكفي لحسم الموقف، منذ اللحظة الأولى، دون الدخول في معركة حربية. وما إن يطمئن سليمان (عليه السلام) لخضوع ملكة سبأ واذعانها لأمره حتى يطلب إحضار عرشها فيستعمل الفعل المضارع (يَأْتِينِي)، وفي أقل من لمح البصر تحقق الفعل وتحول إلى ماض، عندما تجسد حقيقة للعيان (رَآهُ).

وفي موضع آخر يحدثنا القرآن العظيم، منذ بدأ الخلق، عن يوم الجزاء والحساب، مستخدمًا صيغة الفعل الماضي للحديث عن الماضي، حيث يقول تعالى:

(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الأعراف:23.

وهنا نجد أن الآية (الأعراف:23) قد استخدمت صيغة الماضي (قَالَا)، (ظَلَمْنَا)، أي لحظة وقوع الخطيئة وهما في الجنة ولم يهبطا، بعد، إلى الأرض، فجاء استخدام صيغة المضارع (تَغْفِرْ)، (وَتَرْحَمْنَا) أي أن ننال عفوك ومغفرتك الآن؛ حتى لا نكون من الخاسرين يوم القيامة (لَنَكُونَنَّ)، إذ انطلقا، ببصيرتهما الثاقبة والنافذة، إلى المستقبل غير المنظور حيث يوم الحساب. يستنتج من هذا أن هناك انتقال ذهني وفكري قد تم في سرعة هائلة كأنه وميض البرق الخاطف أو لمح البصر من الزمن الماضي السحيق وهو بداية الخلق لآدم وحواء، إلى المستقبل البعيد البعيد، وهو يوم الجزاء الأكبر، حيث يتبين لنا ذلك بوضوح في الفعل المضارع (لَنَكُونَنَّ) الذي اشتمل على أكثر من أداة توكيد (اللام والنون المشددة)، ليقول للناس، بما لا يدع مجالاً للشك والريبة، أن الوعد الحق مؤكد وأنه غير ممطول على الاطلاق.

وفي ذات سورة (الأعراف: 43-50) يقول تعالى:

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ * وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) الأعراف:43-50.

تأمل كيف تتحدث هذه الآيات الكريمة (الأعراف: 43-50) عن أحداث وأفعال مستقبلية (في يوم البعث والحساب)، وفي نفس اللحظة يخاطب الله، تعالى، فيها، أناسًا يعيشون في الحياة الدنيا، ومنهم، كثر، لم يأتوا إلى عالم الوجود بعد، وفي الوقت نفسه نجد أن الأسلوب القرآني قد استخدم صيغة الفعل الماضي متحدثًا عما سيحدث في الأزل، ولنعد إلى الآيات ونرى دوران الفعل الماضي فيها، فتارة يستخدم في موضعه: (هَدَانَا)، (كُنَّا)، (كُنْتُمْ)، ...، وتارة أخرى يستخدم، نفس الفعل، الماضي: (وَنَزَعْنَا)، (وَقَالُوا)، (أُورِثْتُمُوهَا)، (وَنَادَى)، (وَجَدْنَا)، (وَجَدْتُمْ)، (فَأَذَّنَ)، (وَنَادَوْا) (حَرَّمَهُمَا)؛ للحديث عن ما سيحدث بعد البعث والحساب؛ وذلك للدلالة على تأكيد أن الفعل قد وقع بالفعل، في علم الله، وهو واقع لا محالة في ذلك. ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد، إذ نلاحظ أن الآيات، نفسها، لا تفتأ تستخدم الفعل المضارع وهي تتنقل بين الدنيا والآخرة: (يَصُدُّونَ)، (وَيَبْغُونَهَا)، وكان قبلها قد استخدم الفعل المضارع (تَجْرِي)، (يَعْرِفُونَ)، (يَعْرِفُونَهُمْ). وبالرغم من ذلك الفرق الزمني الهائل يستشعر القارئ سلاسة الحركة الممتدة في الزمان، دون أي شعور بفارق زمني محسوس.

قال تعالى:

(قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) الأعراف: 71.

تتحدث الآية (الأعراف:71) عن قوم عاد وجدالهم لرسولهم هود (عليه السلام)، فكان في رده عليهم قد استعمل الفعل الماضي (وَقَعَ)، واستخدام الفعل الماضي في مقام المضارع دليل على أن وعيد هود لهم قد أضحى في حكم المؤكد، بل يمكن القول بأنه قد تحقق بالفعل، لأنه على يقين تام من وعد الله تعالى بينما تجد أن الشك يملأ قلوب قومه وهم ينتظرون، والانتظار والترقب هو جزء من العقاب الذي حل بهم.

قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) الأحقاف:20.

إن الآية الكريمة (الأحقاف:20) قد تعاملت مع الأفعال المضارعة (يُعْرَضُ)، (تُجْزَوْنَ)، (تَسْتَكْبِرُونَ)، (تَفْسُقُونَ)، كما سيقع في الزمن القادم وهو يوم الحساب، وكذلك فعلت مع الفعل الماضي كما حدث في الزمن الماضي (أَذْهَبْتُمْ)، (وَاسْتَمْتَعْتُمْ)، (كُنْتُمْ)؛ وعلى الرغم من ورود الأفعال في موضعها إلا أن البراعة في أن الآية تحمل في داخلها إشارة زمنية واضحة الدلالة والقطع تؤكد على أن العذاب مؤكد في حق كل من كفر واستمتع بالحياة الدنيا، والإشارة المستعملة هنا هي ظرف الزمان (فَالْيَوْمَ) وهو يبين للقارئ حتمية وقوع الحدث، في اللحظة الآنية، بشكل لا مجال للشك فيه.

قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) الأحقاف:34.

إن القارئ ليلمح، في الآية (الأحقاف: 34)، تغلب الفعل الماضي (قَالُوا)، على الأفعال المضارعة (يُعْرَضُ)، (تَكْفُرُونَ)، وهي تشكل الأكثرية وأن المقام هو مقام المضارع وهو المستقبل، ولكن القوة والغلبة تكون للماضي الذي أخذ قوته من اسم الإشارة (هَذَا)، الذي يدعم ويسند موقف الفعل الماضي والذي كان القصد منه تأكيد وقوع الفعل في علم الله، تعالى، المسبق.

قال تعالى:

(وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) هود:8.

إن المتأمل للآية (هود: 8)، يجد أنها تنضح بعناد الكفار واصرارهم على تمسكهم بكفرهم، فالحق، جلَّ وعلا، يؤخر عنهم العذاب (أَخَّرْنَا) إلى أجل محدود ومعلوم (أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ) إلا أنهم يستعملون الفعل المضارع المزود بأدوات التأكيد (لَيَقُولُنَّ) إمعانًا منهم في الكفر وفي نفس الوقت هناك عدم اكتراث ولا

مبالاة في حديث اللذين لا يؤمنون باليوم الآخر، سخرية واستهزاءً منهم بيوم الحساب وما فيه من جزاء وعقاب، ولكن لسان الكافرين يستخدم أربعة أفعال مضارعة الأول منها به اثنان من أدوات التوكيد وهما اللام والنون المشددة: (لَيَقُولُنَّ)، (يَحْبِسُهُ)، (يَأْتِيهِمْ)، (يَسْتَهْزِئُونَ)، للإشارة إلى استبعاد وقوع الفعل؛ بينما إذا تفكرنا، في الآية، نجد ثلاث أفعال ماضية (أَخَّرْنَا) (كَانُوا)، (وَحَاقَ) غير أن الفعل الأخير قد أطاح بكل آمال وأحلام الكافرين وسخريتهم واستهزاءهم، مما يؤكد على حقيقة وقوع العقاب، وأن لا مجال لوجود أدنى درجة من الشك، وفي ذات الآن، فإن الفعل الماضي الذي قام مقام المضارع يثبت قوة السيطرة الإلهية في تلكم الساعة، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) الزمر: 67.

وفي الآيتين (يوسف:21، 55)، اللتان وردتا في قصة سيدنا يوسف (عليه السلام)، الدليل القاطع والبرهان الساطع على أن استخدام الفعل الماضي مكان الفعل المضارع، في القرآن، يعني حتمية وقوع الفعل، قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) يوسف:21.

هذه الآية (يوسف: 21) تتحدث عن اللحظات الأولى لقدوم يوسف (عليه السلام)، لمنزل سيده، وهو في سنواته الأولى من عمره، ولكن أنظر إلى الفعل المذكور في الآية، أنه الفعل الماضي (مَكَّنَّا)، والذي ذُكر للتأكيد على أن فعل التمكين قد وقع في العلم الأزلي، مع أن التمكين الفعلي سيأتي بعد ذلك بسنوات، أي بعد انقضاء فترة السجن، قال تعالى:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) يوسف:54.

حيث يخبره الملك، في هذه الآية، بأنه قد أصبح لديه (مَكِينٌ)، وهنا قد تأكد وقوع الفعل الماضي (مَكَّنَّا)، ثم انظر إلى الفعل المضارع (وَلِنُعَلِّمَهُ)، أي مستقبلاً، ولعل في هذا دلالة واضحة على أن فعل

التمكين قد تم مسبقًا ليوسف، عليه السلام، ولكنه كان كامنًا إلى أن أتى زمانه بعد خروجه من السجن ولقاءه للملك الذي تحقق على يديه فعل التمكين، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) يوسف:56.

قال تعالى:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ* قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) (الأعراف:37-40).

لنتتبع مسار حركة الأفعال التي وردت في الآيات السابقة (الأعراف:37-40)، والتي يدور فيها الحديث حول الجزاء في يوم يبعث فيه الناس للحساب: (افْتَرَى)، (كَذَّبَ)، (جَاءَتْهُمْ) (قَالُوا)، (كُنْتُمْ)، (قَالُوا)، (ضَلُّوا)، (وَشَهِدُوا)، (كَانُوا)، (قَالَ)، (خَلَتْ)، (دَخَلَتْ)، (لَعَنَتْ)، (ادَّارَكُوا)، (قَالَتْ)، (أَضَلُّونَا)، (قَالَ)، (وَقَالَتْ)، (كَانَ) (كُنْتُمْ)، (كَذَّبُوا)، (وَاسْتَكْبَرُوا) (يَدْخُلُونَ)، (تَعْلَمُونَ)، (تَكْسِبُونَ)، (يَلِجَ)، (نَجْزِي)، لنلحظ، في هذا المقام، أن الغلبة والأكثرية الساحقة، منها، كانت للفعل الماضي الذي احتشدت به الآيات بكثافة، بالرغم من أن مدار الكلام، في غالبه، يتناول المستقبل غير المنظور للإنسان، إن هذه الأفعال تبين للتالي للآيات مدى الشعور والإحساس بالخضوع والزلة والمهانة ..، الذي اكتنف النفوس وحاق بالظالمين لحظة وقوع الحساب إذ لا مناص لهم اليوم.

قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) الأعراف:54.

قال تعالى:

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) يونس:24.

تشتمل الآية (يونس:24) على مجموعة أفعال منها ما يشير إلى الحديث عن زمن سيأتي في المستقبل، غير أن الشئ الملفت للنظر هو أن الآية، الكريمة، تتحدث زمن، بعيد، لا يعلم مداه إلا الله تعالى؛ ولكن الغلبة كانت للفعل الماضي، من حيث العدد، (أَنْزَلْنَاهُ)، (فَاخْتَلَطَ)، (أَخَذَتِ)، (وَازَّيَّنَتْ)، (وَظَنَّ)، ثم يأتي الفعل الماضي (أَتَاهَا) ومن بعده (فَجَعَلْنَاهَا) لحسم كل جدل يدور في هذا الشأن المستقبلي، وبالرغم من كونه شأن مستقبلي، بحت، إلا أن الله، تعالى، قد جعله في علمه ماض، حتى يقضي على أدنى مثقال ذرة من الشك يمكنها أن تزعزع اليقين المتغلغل في النفوس، فتورد الآية، الكريمة، لفظي (لَيْلًا)، (نَهَارًا) , امعانًا في الدقة الزمنية المتناهية في ضبط الزمن بحسب زمن الكرة الأرضية. ولم تزل علامات التأكيد على أن الفعل (أَتَاهَا)، قد وقع وانتهى بالفعل بما لا يدع مجالاً للشك، يقول تعالى:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) النحل:1.

وهنا تستعمل الآية الكريمة (النحل:1) ذات الأحرف للتعبير عن الحقيقة التي أصبحت واقعًا ملموسًا، لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه.

فأي براعة وأي عظمة أعظم وأجل من هذه البراعة والجمال في استخدام الأفعال، ولكن هذا لا يثير دهشتنا ولا استغرابنا, ولا يمكننا القول بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان؛ ففي مثل هذا القول إنكار للقدرة الإلهية، ولذلك نقول إن في الإمكان أبدع مما كان وما سيكون أو ما هو كائن، ويكفي القول بأنها براعة وعظمة قد أتت من لدن عليم خبير وكفى.

إن حركة الزمن واستخداماته في القرآن العظيم حركة انسيابية للزمن المتصل، إذ تتنقل المشاهد بين ماض لا نعلم مداه وبين مستقبل بعيد لا ندرك منتهاه، كل ذلك في بضع آيات قصار، وكأن الإنسان أمام مشهد تصويري أو مسرحي، فمن ذلك، على سبيل المثال، قوله تعالى:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ) الملك: 25-27.

لقد انتقل أسلوب الحديث في الآيات (الملك: 25-27) من الأحداث الدنيوية مباشرة إلى الحديث عن مشهد في يوم الحساب فاستخدم المضارع (يَقُولُونَ) للتعبير عن أمر قد مضى في الحياة الدنيا، ثم، بعد ذلك، جاء بالفعل الماضي (رَأَوْهُ) (سِيئَتْ) للتعبير عن حدث سيقع في المستقبل البعيد وغير المنظور وأعقب ذلك ببعض صيغ الماضي (قِيلَ) (كُنْتُمْ)؛ وذلك لأن الحدث قد تم بالفعل في علم الخالق، جلَّ وعلا، كما يريد.

قال تعالى:

(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) القيامة:38-40.

انظر كيف استخدمت الآيتان السابقتان الفعل المضارع (يَكُ) للإشارة إلى ماضي الإنسان قبل تكونه في الرحم، ثم جاء، بعد ذلك، بالفعل الماضي (كَانَ) (فَخَلَقَ) (فَسَوَّى) (فَجَعَلَ)؛ وذلك للدلالة على أن الله، تعالى، هو الخالق البارئ المصور .. ذو القدرة، ثم ينتقل الحديث إلى حقبة مستقبلية موغلة في المستقبل البعيد، للتأكيد على أن الذي له القدرة على الخلق والحياة لديه، أيضًا، القوة والقدرة على إستعادة الحياة والبعث من جديد في ساعة الحساب، وهنا تعود الآيات إلى استخدام الفعل المضارع من جديد (يُحْيِيَ) أي بعد الموت.

. الخاتمة:

يأمل الباحث، في خاتمة هذا البحث، أن يكون قد بذل الجهد المطلوب وأوفى الدراسة جزءًا من حقها المرجو، إذ أن القرآن العظيم حري بالبحث فيه، وجدير بدراسة ألفاظه وآياته وسوره، فهو النبع

الذي يفيض على العقول بفتوحاته وتتجدد المدارك بمطالعاته في كل حين وآن، لاسيما وأنه يمثل ذروة بلاغية وثروة لفظية بالنسبة للباحثين في شتى فنون اللغة العربية ومجالاتها. ولم يكن من أهداف هذه الدراسة المنحى التفسيري للآيات فهذا باب لم تتطرق إليه الدراسة إلا في أضيق نطاق وبالقدر الذي يخدم توجه الدراسة فقط؛ وذلك لأن مادة البحث مستقاة من ألفاظ القرآن العظيم، كدراسة دلالية تناولت مدلولات الألفاظ في الإطار الزمني للفعل الماضي والفعل المضارع للتدليل على بلاغة الأسلوب القرآني ودقته في تصوير الأنفعالات الحسية والتعابير النفسية دون أن تكبله القيود الزمانية أو الحدود المكانية التي تتحكم في الأجسام المادية وتخضعها لضوابط قانون المادة، ولكن الله، تعالى، هو من سن القوانين الكونية وهو المتحكم والمتصرف في عملها وانفاذها أو ابطالها متى شاء ومتى أراد.

ٹ ڈ چ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ چ الرعد: ٣٩.

وليس للمرء إلى التسليم بمشيئته والخضوع لنواميسه، ولا يملك من القول إلا أن يقول:

ٹ ڈ چ ے ے ۓ ۓ ﮫ چ الأحقاف: ٣٣.

. نتائج الدراسة:

تمتاز آيات القرآن العظيم بوفرة في مجال معاني المفردات ودلالات الألفاظ بحيث تشكل ثروة لفظية لا نظير لها ولا مثيل؛ مما يشكل مادة بحثية يمكن لجميع الدارسين والباحثين، في فنون اللغة العربية، أن يستقوا من معينه دون توقف.

اللغة العربية هي الوعاء الذي حمل الحضارة الإسلامية، وحفظ للإنسانية تراثها المعرفي والعلمي، ولولاها لانقطع جسر تواصل الحضارة الإنسانية ولضاعت الكثير من علومها واندثرت.

إن اللغة العربية، بالرغم من تقادم عهدها وتتطاول القرون على نشأتها، إلا أنها ظلت تحمل في ثناياها بذور تطورها؛ مما مكنها من المحافظة على فتوتها اللغوية، لتستمر في النمو والتجدد.

إن العلاقة المتينة والمتجذرة بين القرآن العظيم واللغة العربية هي التي أسهمت في بناء جسور التواصل بينها وبين قلوب عشاقها ومحبيها من اللعلماء الأجلاء الأفاضل، الذين خدموها بلا مقابل.

. المراجع:

القرآن العظيم.

إبراهيم أنيس: دلالات الألفاظ، مكتبة الآنجلو المصرية (القاهرة) 1992م.

أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج7، دار الشام للتراث (بيروت) 1960م.

أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، ج: 1، دار صعب، بيروت.

أبو هلال عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحي بن مهران اللغوي العسكري: الفروق اللغوية.

أحمد الحملاوي: شذى العرف في فن الصرف، الفيصلية، (مكة المكرمة) 2004م.

أحمد حسن الباقوري: أثر القرآن في اللغة، دار المعارف ط4، (القاهرة) 1987م.

أحمد علي محمود ربيع: المدخل إلى علم المعاجم والدلالة، مكتبة الرشيد، (بيروت) 2007م.

إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي: تفسير ابن كثير ج3، دار الفكر، (بيروت) 1401هـ.

حسن ظاظا: كلام العرب، ص: 5، الدار الشامية (بيروت) 1990م.

سيد قطب: في ظلال القرآن، ج1، دار الشروق، (القاهرة)، ط17، 1992م

عاطف المليجي، الزمن في القرآن الكريم، ط1، 2007م. (المكان غير موضح).

عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، (القاهرة) 1974م.

عباس محمود العقاد: اللغة الشاعرة ، مكتبة غريب (القاهرة)

عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن، منشورات المكتبة العصرية، (بيروت)، بدون تاريخ.

عبد الرحمن بدوي: الزمان الوجودي، الميزان للنشر والتوزيع، (القاهرة) 2017م.

عثمان محمد أحمد الحاوي: علم الدلالة، مكتبة المتنبئ، (الدمام) 2006م.

عيسى بن عبد العزيز الجزولي: المقدمة الجزولية في النحو، أم القرى (القاهرة) 1988م.

مالك بدري: التفكر من المشاهدة إلى الشهود، الدار العالمية للكتاب الإسلامي (الرياض) 1995م.

محمد الأمين بن محمد بن المختار: أضواء البيان ج2/ ج6، دار الفكر، (بيروت) 1995م.

محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، دار الكتاب العربي (بيروت) 1979م.

محمد بن الحسن بن دريد الأزدي: جمهرة اللغة، من موسعة الشعر العربي.

محمد بن عبد الرحمن بن عمر المعالي ... القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، موسوعة الشعر العربي اصدار 2004م.

محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين بن مظرور الأنصاري الرويفعي الأفريقي: لسان العرب، دار المعرف (القاهرة)1955م

محمد علي الصابوني: روائع البيان تفسر آيات الأحكام من القرآن، ج1، دار إحياء التراث العربي (بيروت).

محمد محي الدين عبد الحميد: شرح ابن عقيل على ألفية ابم مالك، ج1، دار الطلائع (القاهرة) 2004م.

محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية، ص: 9، دار الثقافة للطباعة والنشر (القاهرة) 1973م.

مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف (الرياض)، 2009م.

موسوعة الشعر العربي الإضدار الأول 2009م.

الموسوعة العربية اصدار 2004م.

والتر إزاكسون: أينشتاين حيته وعلمه، ترجمة: هاشم أحمد محمد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، (القاهرة) 2013م.

https://www.scribd.com/doc/190671694/%D9%85%D9%81-5.

مراجع البحث:

[1]/ محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية، ص: 9، دار الثقافة للطباعة والنشر (القاهرة) 1973م.

[22]/ محمد محي الدين عبد الحميد: شرح ابن عقيل على ألفية ابم مالك، ج1، ص: 16، دار الطلائع (القاهرة) 2004م.

3

44

[5]/ محمد علي الصابوني: روائع البيان تفسر آيات الأحكام من القرآن، ج1، ص: 5، دار إحياء التراث العربي (بيروت).

[6]/ مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص: 17، مكتبة المعارف (الرياض)، 2009م.

[7]/ الموسوعة العربية اصدار 2004م.

[8]/ سيد قطب: في ظلال القرآن، ج1/ص: 11، دار الشروق، (القاهرة)، ط17، 1992م

[9]/ سيد قطب: في ظلال القرآن، ج1، ص: 16، دار الشروق (مصر)، ط7، 1992م.

[10]/ عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن، ص: 118، منشورات المكتبة العصرية، (بيروت)، بدون تاريخ.

[11]/ الآتو/ثانية= مليار مليار جزء من الثانية، أي واحد وأمامه ثمانية عشر من الأصفار.

[12]/ محمد بن الحسن بن دريد الأزدي: جمهرة اللغة (مادة: س، ل، ب). من موسعة الشعر العربي.

[13]/ محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، دار الكتاب العربي (بيروت) 1979م.

[14]/ محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين بن مظرور الأنصاري الرويفعي الأفريقي: لسان العرب، مادة (س ل ب) دار المعرف (القاهرة)1955م

[15]/ موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول 2009م، ديوان يحي بن سلامة بن الحسين الحصكفي، ص: 17.

[16]/ عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني للقرآن الكريم، ص: 25، دار المعارف، (القاهرة) 1974م.

[17] / العقاد : اللغة الشاعرة ، ص :16 ، مكتبة غريب (القاهرة)

[18] / مالك بدري : التفكر من المشاهدة إلى الشهود ، ص :29

[19]/ حسن ظاظا: كلام العرب، ص: 5، الدار الشامية (بيروت) 1990م.

[20]/ عبد العظيم إبراهيم محمد المعطي: دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص: 226، أميرة للطباعة (مصر) 1996م.

[21]/ عباس محمود العقاد: المرأة في القرآن، ص: 118، منشورات المكتبة العصرية، (بيروت)، بدون تاريخ.

[22]/ أبوهلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد ابن يحي بن مهران اللغوي العسكري: الفروق اللغوية، ص : 4.

[23]/ عبد العظيم إبراهيم محمد المعطي: دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص: 6، أميرة للطباعة (مصر) 1996م.

[24]/ أحمد الحملاوي: شذى العرف في فن الصرف، ص: 19، الفيصلية، (مكة المكرمة) 2004م.

[25]/ الموسوعة العربية اصدار 2004م.

[26]/ محمد محي الدين عبد الحميد: شرح ابن عقيل، ج1، ص: 19، دار الفلاح، (القاهرة)2004م.

[27]/ عيسى بن عبد العزيز الجزولي: المقدمة الجزولية في النحو، ص: 33، أم القرى (القاهرة) 1988م.

[28]/ محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، (مادة: ز م ن)، دار الكتاب العربي (بيروت) 1979م.

[29]/ محمد بن عبد الرحمن بن عمر المعالي ... القروينى: الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 7، موسوعة الشعر العربي اصدار 2004م.

[30]/ أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، ص: 153، ج: 1، دار صعب، بيروت.

[31]/ إبراهيم أنيس: دلالات الألفاظ، ص: 48، مكتبة الآنجلو المصرية (القاهرة) 1992م.

[3232]، عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني للقرآن الكريم، ج1، ص: 13، دار المعارف (القاهرة) 1974م.

[33]/ الموسوعة العربية العالمية اصدار 2004م.

[34]/ التفسير الميسر.

[35]/ محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله: الجامع لأحكام القرآن، ج16.

[36]/ الموسوعة العربية اصدار 2004م.

[37]/ أحمد علي محمود ربيع: المدخل إلى علم المعاجم والدلالة، ص: 116، مكتبة الرشيد، (بيروت) 2007م.

[38]/ عثمان محمد أحمد الحاوي: علم الدلالة، ص: 7، مكتبة المتنبئ، (الدمام) 2006م.

[39]/ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص: 26، دار الشام للتراث (بيروت) 1960م.

[40]/ الموسوعة العربية العالمية اصدار 2004م

[41]/ نفس المصدر.

[42]/ عبد الرحمن بدوي: الزمان الوجودي، ص: 17، الميزان للنشر والتوزيع، (القاهرة) 2017م.

[43]/ نفس المصدر، ص:100.

[44]/ والتر إزاكسون: أينشتاين حيته وعلمه، ص: 139، ترجمة: هاشم أحمد محمد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، (القاهرة) 2013م.

[45]/ عبد الرحمن بدوي: الزمان الوجودي، ص: 48، الميزان للنشر والتوزيع، (القاهرة) 2017م.

[46]/.https://www.scribd.com/doc/190671694/%D9%85%D9%81-5

[47]/ عبد الرحمن بدوي: الزمان الوجودي، ص: 20، الميزان للنشر والتوزيع، (القاهرة) 2017م.

[48]/ عاطف المليجي، الزمن في القرآن الكريم، ص: 15، ط1، 2007م. (المكان غير موضح).

[49]/ أحمد حسن الباقوري: أثر القرآن في اللغة، ص: 29، دار المعارف ط4، (القاهرة) 1987م.

[50]/ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي: تفسير ابن كثير ج3/ص65، دار الفكر، (بيروت) 1401هـ.

[51]/ محمد الأمين بن محمد بن المختار: أضواء البيان ج2/ص253، دار الفكر، (بيروت) 1995م.

[52]/ محمد الأمين بن محمد بن المختار: ، أضواء البيان ج6/ص99 دار الفكر، (بيروت) 1995م.